من هو ابو العلاء المعري

ولِمَ تقام المهرجانات لذكرى مرور الف عام على ولادته

ما كان ابو العلاء المعري نبياً جاء بدين يهدي البشر الى الصراط المستقيم ولا خليفة راشداً استن للامة سنناً تهديهم الى سبل الرشاد. ولا ملكا عزيز الجانب لم تأخذه في الحق لومة لائم. ولا قائداً فاتحاً وسع ملك العرب وسلطانهم، ولا بطلاً ردّ عنهم غزاة بلادهم، ولا مجتهداً وضع للامة مبادىء قادتهم الى الخير، ولا مكتشفاً ضم الى بلاد امته بلاداً اخرى ولا مخترعا اوجد لامته ما هون عليها مشقات العمل.

ولكن الروح الانسانية تواقة بفطرتها الى الافكار والسوانح العلوية التي تعبق من مهبط الكمال في ظلمات اسرار الخليقة فتنير السبل وتدفع البشر الى العلاء.

والذكاء والمعرفة أعلى ميزات الانسان وأجلها، فاذا اقترنا بالعقل والوجدان كانا كواكب منيرة في ظلمات الخليقة يهتدي بها العاشي في حالك المعضلات.

وانّية الانسان وحرسه على صيانة ما يخصه من كل جامحة تجعله يقدس من تخلق بالقواعد التي وضعها البشر لهذه الغاية واحترام كل من يدافع عنها بالقوة او باللسان. واذا كان هذا التخلق والدفاع في زمن كثر فيه الاستهتار واشتدت فيه قوة الاستغلال زاد صاحبه اكباراً واجلالاً في نظر أمثاله من بني الانسان.

واذا جاء بأكثر مما كان يطلب منه استجلب الانظار اليه واختص بتقدير من لم يكن قادراً على مساواته وأصبح بنظر الناس من الأفذاذ. وابو العلاء المعري كان خلوقاً جريئاً قوي الروح والارادة زكياً عالماً قادراً على التعبير عما يخالج نفسه من عواطف وأفكار وانتقاد كل ما لم يقبله الخلق الكامل

والعقل السليم بحرية وجرأة وبلغة متينة غير مبال بما تأتي به آراؤه بالنسبة الى عصره من مقت ونكبات .

وقد تغلب فيه جوهر الروح على جوهر الجسد فكبح جماح شهواته المادية وعاش عيشة الزهاد المتقشفين مكتفياً بما يمسك مسكة حوبائه من طعام وشراب وتغذية روحه بالدرس والتفكير والتدريس والنظم والتأليف ، غير ملتفت الى قيود محيطه الذي ساد فيه القلق والاضطراب وضحيت فيه الحرية في سبيل ممارسة خصائص الحكم التي كانت تستلزمها حالة الاجتماع آنئذ .

وهذه الخصائص وهذا الاعتكاف على الدرس والتفكير الذي اتخذ فيه الحياة الانسانية كلها موضوعاً لتفكيره والتأمل بحل معضلاتها جاء ببنات أفكاره التي استجلبت اعجاب الادباء والعلماء من سائر بني الانسان .

ان منشأ حبنا وتصورنا ومخاوفنا وآمالنا وحسراتنا ورجائنا هو النفس وليس العقل الذي هو آلة الفكر والمحاكمة ، فالنفس هي الينبوع الفياض لعواطفنا ، والعواطف هي الجوهر الأصلي في انسانيتنا والفكر واسطة لتسميتها وتفسيرها واللسان وتر ما يلد في وجداننا من العواطف المنبعثة عن حالاتنا النفسية .

وهناك بعض تجليات نفسية عميقة لا نستطيع التعبير عنها بلغة الكلام تذهب بنا الى فكرة يأس عميق أو سرور ظاهر .

ومن هذا يمكن وجود مسلكين متناقضين من فكرة واحدة أحدهما يشقي الانسان والآخر يسعده قليلاً او كثيراً ، والأول هو التشاؤم والثاني هو التفاؤل، واذاً ليست مسألة التشاؤم والتفاؤل الا مسألة مزاجية .

فاذا نظر الانسان الى الاكوان الخارجية وصحف حياته نظرة تقدير يحاول بها تعيين القيم فلا ينظر الا من وراء أحواله النفسيةفيرى الدنيا جميلة او قبيحة والحياة سعيدة أو شقية على نسبة انتعاشه المعنوي .

واللذه والألم والسرور والحزن حالتان أصليتان في الحياة الانسانية وكل حالة منهما يتلازم فرعاها مردودين الى شكل عام من أشكال الشعور ينتهي بنا الى القول بأن من لم يتألم لا يتلذذ ومن لم يحزن لا يسر وان الوجدان البشري بحر خضم مجهول الحدود لا ينال غوره تمر به الرياح والعواصف من حين الى

آخر فتثير فيه أمواجاً يعجز العقل عن استيعابها وهي ما نسميه وحياً والهاماً وتلك الأمواج هي الحالات النفسية ، والانسان على استعداد عظيم لحمل الكون الجامد الصامت بأسره على لسانه وهذا هو الشعر في اعمّ وأتم معناه والانسان بمثل هذا الاستعداد انما يأنس الى الأكوان فينطقها ويقبس منها معاني وأفكاراً تصلها به الصلة التامة فيمد الكون بالمعاني .

وما الشاعر الفذ الا ذلك الذي يمد الكون بالمعاني البليغة ويخترق حجب الحياة والموت ويهز النفس أبداً لسورة إلهامه ويزن الحياة بالقسطاس المستقيم . وليس من أمر انساني يفوق أهمية أمر تقويم الحياة وتفسيرها بالمعنى الصحيح الا أن الناس لم يختلفوا في أمر قط اختلافهم في حل هذه المعضلة العويصة ، لما يكتنف مزاجهم من مجلى حالتي التشاؤم والتفاؤل وما صبغ أفكارهم من صبغة الأمل الباسم أو اليأس الباكي .

وان أروع الشعر واجمل البيان هو ما استطاع أن يكشف العواطف المستسرّة المتصلة بقضايا الموت والحياة والسعادة والشقاء التي تتلاطم أمواجها في نفوسنا دائرة على قطبي اليأس والرجاء .

ولعقائد الانسان في المعاد والآخرة اتصال وثيق بانصراف أفكاره وعواطفه الى نظريات التفاؤل والتشاؤم وللايمان وشكوكه أثر بين في تلك العقائد ولتقديره الكون قائماً على الاتقان والنظام وعدم يقينه بذلك دخل كلي في إيمانه وشكوكه فمن لم يؤمن بالعدل المطلق لا يؤمن بالآخرة ، ولهذه المباديء اكبر صلة بالخير والشر فمن يعتبر الخير أصلاً وعلة غائية يظلّ متفائلاً ومن يعتبر الشر أصلاً في الخلق لا يعيش الا متشائماً .

ومن هذا نستنتج ان الاصل في السعادة هو الاطمئنان النفسي وهذا مبعث الايمان . والايمان خارج عن اختيار الانسان لانه لابد فيه من الهام قدسي خاص أي هداية كما قال تعالى : (انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) وفي التشاؤم الاقرار بأن الشر أصل في الوجود ، وقد كان المعري من عباقره الشعراء الذاهبين الى الشق الثاني ويرى أن الدهر قائم على الاتلاف والافساد والمجتمع منصوب على الغدر والخيانة وأن النظم البشرية التي يسير

عليها المجتمع بعيدة عن تقويم الحياة والقسطاس المستقيم الذي يريده العقل وأن لا شيء قائم على الاتقان والنظام والعدل والمساواة ؛ فأراد أن يفهم الكون بجميع المعلومات الناجمة عن تجارب البشر والاديان وتاريخ الانسان على العموم ، فدار حول دائرة المعارف الانسانية الصغيرة في وسط فضاء الظلام الواسع يدرس ويفكر وهو الشاعر الملهم والحكيم الواعي ، والفيلسوف اذا سار مع ميوله الطبيعية وتذوق بالشبه ولم يكبح جماح خياله وقع بالشك وانقاد للمؤثرات النفسانية التي تهاجمه من كل صوب وحدب فتطوّح به للانكار وتزمله بالتشاؤم في كل أقواله وأفكاره .

وعمي المعري في الرابعة من عمره وقساوة محيطه وعيشه وما أوتيه من الاحساس الرقيق دفعه لانتقاد كل ما لم يقبله عقله ووجدانه غير هيّاب ولا وجل . فصوّر آراءه في شعره ونثره غير ملتفت إلى قيود محيطه وعقيدته فجاء بما جاء به من انتقاد للمجتمع ولبعض المظاهر الدينية ووقف حائراً يقول :

وبصير الأقوام مثلي أعمى فهلموا في حندس نتصادم

ونظر إلى موت أصحابه الذين سبقوه إلى دار البقاء ، فرأى هناك سراً غامضاً تقف العقول عنده حيرى كليلة فقال :

أما الصحاب فقد مرّوا وماعادوا وبيننا بلقاء الموت ميعاد
سرّ قديم وأمر غير متضح فهل على كشفنا للحق اسعاد
سيران ضدان من روح ومن جسد هذا هبوط وهذا فيه اصعاد
أخذ المنايا سوانا وهي تاركة قبيلنا عظة منها وايعاد
توقعوا السيل ، أوفى عارض وله في العين برق وفي الاسماع ارعاد

وتراه تجاه هذا السرّ المبين ينتقل فجأة إلى تقويم الحياة وبيان ماهية الوجود فيقول :

كل ذكر من بعده نسيان وتغيب الآثار والأعيان
إنما هذه الحياة عناء فليخبرك عن أذاها العيان
ما يحسّ التراب ثقلاً إذا ديس ولا الماء يتعب الجريان
نفس بعد مثله يتقضى فتمرّ الدهور والأحيان

ومرثيته الخالدة خير معبر عن فكرته في الحياة التي لا يرى فيها ما يستحق منه دمعة أو ابتسامة حينما يقول :

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعيّ إذا قيس بصوت البشير في كل ناد
أبكت تلكم الحمامة أم غنت على فرع غصنها الميّاد

ولكنه سما بتفكيره إلى عالم الحقيقة عالم القيم المحضة المعينة المستقر الذي لا يتغير فجذبه نحوه كالمغناطيس وعلا به إلى مكانته العليا ووهبه قوّة على النهوض فوق قوّة مستواه الطبيعي فرأى أن العالم ليس مجرّد مجموعة ذرات مادية محشودة بدون معنى وأنه ليس مجرّد فراغ تدور حوله حياة الانسان ، فقال :

بوحدانية العلام دنا فذرني أقطع الأيام وحدي

وقال :

انفرد الله بسلطانه فما له في كل حال كفاء
ما خفيت قدرته عنكم وهل لها عن ذي رشاد خفاء

والبيت الأول لا يعدو قول الله عزّ وجلّ (قل هو الله أحد) إلى آخر السورة ، لأنه يثبت الوحدانية ويثبت القدرة بلفظ القرآن .

وقال :

أما ترى الشهب في أفلاكها انتقلت بقدرة من مليك غير منتقل

وهنا يقصد استقرار الموجود المطلق ، ثم قال :

والله أكبر لا يدنو القياس له ولا يجوز عليه كان أو صارا

وهنا قال بعالم لا يتناهى ومكان لا يتناهى وإلهٌ في هذا العالم لا يتناهى .

وقال :

هو الفلك الدوّار أجراه ربه على ماترى من قبل أن تجري الفلك
له العز لم يشركه في الملك غيره فيا جهل إنسان يقول لي الملك
وأيامه منظومة في حياته ولا نظم يبقى حين يمتلىء السلك
خلقنا لشيء غير باد وإنما نعيش قليلاً ثم يدركنا الهلك

وهنا استمد ضرورة الايمان من ضرورة المنظم لهذه الخليقة التي حارت بها الافكار وهو يرى اننا خلقنا لشيء غير باد لعقلنا المحدود .

وهو بمناسبات عديدة يبين لنا اعتقاده القوي في الحياة الآخرة وعبادته الموجود المطلق عبادة خالصة لوجهه تعالى ، لاحبا بجنته ولا خوفا من ناره ، ومنها :

وقدرة الله حق ليس يعجزها حشر لخلق ولا بعث لاموات
فاعجب لعلوية الاجرام صامتة فيما يقال ومنها ذات اصوات

* * *

واعبد الله لاارجو مثوبته لكن تعبد اعظام واجلال
اصون ديني عن جعل أوءمله اذا تعبد اقوام باجمال

* * *

ماالخير صوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوف على الجسد
وانما هو ترك الشر مطرحا ونفضك الصدر من غل ومن حسد
مادامت الوحش والانعام خائفة فرسا فما صح امر النسك للاسد

وقد وضع على مايفهم من نصوص الكتاب في زمن متأخر من حياته كتاب الفصول والغايات بقدس الله فيه ويبجله تقديس النادم المستغفر الذي يعتقد أن ذنوبه اعظم من ان تغفر واشد من أن تجد مجالا للغفران .

وللتدليل على ذلك اذكر لكم ماقاله في هذا الخصوص :

(استغفر من لايعزب عليه الغفران لو كانت الذنوب سودا صارت بشرتي كحلك الغراب واصبح دمي كالحبر المستنعت للكتاب واعديت ماجاورني من وقت ومكان حتى يكون مقعدي في الشمس الصافية مظلما وانا في رأد الضحاء) وقد وضعه في تمجيد الله والمواعظ ، وقال :

(قد علم ربنا ماعلم اني الفت الكلم آملن رضاه المسلم واتقي سخطه المؤلم فهب لي ماابلغ به رضاك من الكلم والمعاني الغراب) . والكتاب من الناحية العلمية متعة الاديب وامنية العالم ملأه بشتى العلوم من اللغة والادب والعروض والنحو والصرف والتاريخ والحديث والفقه والفلك ، بث فيه كل ماوعاه صدره من ألعلم وغيره مما لم يسبق لغيره جمعه بالطريقة التي سلكها ذلك انه يملي الفقرة على تلامذته

ثم يختمها بالغاية وهي عنده بمنزلة القافية من بيت الشعر ، وقد تطول الفقرة وقد تقصر ثم يملي التفسير .

فالمعري شاعر حقيقي وفيلسوف مزاجي واكبر مميزات شعره انه صادر عن الم فياض وهيجان نفسي، ولكن آراءه ساطعة وطراز تفكيره موافق لاصول مراقبة الوجدان وسبيل استدلاله مثال للمنطق الحسي وسلسلة محاكماته تنطلق من تموجات حواسه ، وطول عراكه في ظلمات الحياة ساقه للغضب وانكار قدسية الاديان .

وذهن المعري فعال في كل ميادين الحياة . وجوامع الكلم التي جاء بها غذاء روحي للمثقفين من ابناء الامة العربية .

وفعالية الملكات المعنوية في كل مؤلفاته والتنويع الذي لم يسبق اليه يجلبان لنا الدور الذي لعبه العقل والحس والالم وكلها تحتاج الى فكر وقاد ووجدان رقيق حساس وعلم جم والهام رائع يجب ان يحاكم من اتى بمثلها وجدانه قبل ابرازها محاكمة دقيقة وان يتنور كل مايحيط ويتمركز في قرارة نفسه ووعيه لانها لاترد عفوا ولا يمكن أن تأتي من العدم بل هي ثمرة عملية ذهنية مصقولة جريئة وليست مما يقدر أن يأتي به كل انسان بل خص بها الافذاذ وصقلها العلم والتفكير ولذلك فان شاعرنا الفيلسوف من ارباب الخلود الذين انارت خواطرهم وسوانحهم عقول المثقفين وزادوا ثروة العالم الفكرية ، فلا غرو اذاً ان يحتفل به العرب احتفال الامم الاخرى باكبر مفكريها .

اديب وهبه
مندوب شرق الأردن